المبحث الثاني
المظهر الكوني للأصول العقدية لتربية المرأة المسلمة المعاصرة
"علاقة التسخير"

يمثل التسخير تطبيقا للمظهر الكوني للأصول العقدية لتربية المرأة المسلمة المعاصرة.

وقد حدد معنى هذا المصطلح الدكتور الكيلاني بإشارته إلى أن التسخير يعني: " أن الله مكن الإنسان من استخدام مظاهر الكون في تطبيقات عملية نافعة للإنسان في مجالات حياته المختلفة دون ثمن يقدمه لله. إلا أن الكون لا يخدم الإنسان إلا بعد أن يتعرف الإنسان على كيفية توجيه أوامره إليه. وذلك إنما يتم من خلال اكتشاف الإنسان لقوانين التسخير" (الكيلاني، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، ص ١١٨) .

وقد زود الله الإنسان منذ خلقه بالمؤهلات التي تمكنه من اكتشاف أسرار الكون وقوانينه، وذلك لكي يتمكن من أداء مهمته في عمارة الكون، وتحقيق سيادته عليه، والتي تقوم على ركائز ثلاث[1]:

١- **الفاعلية الإنسانية**: ويعتبر **علم الأسماء** أحد مقوماتها الرئيسية، ونجد المفسرين يذكرون معان عدة لعلم الأسماء؛ أنسبها" علم حقائق الأشياء "، والمراد بذلك العلم الإجمالي وليس التفصيلي.

٢- **المسخرات الكونية للإنسان من أشياء وأحياء**: ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف:١٠].

٣- **أساليب انتفاع الإنسان بالمسخرات.**

وقد ذكر المفسرون أن المسخرات قد سلمت للإنسان كأمانة حيث يتصرف فيها كنائب (أميني، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ١٣) وذلك وفقا لمنهج علمه بالأشياء الذي يتحصل عن طريق الحس والملاحظة والتجربة والخبرة والجهد العقلي باستخدام الوسائل

---

(١) **انظر**: (دسوقي، د. ت، ص ١٧/ العبدة في البيان، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٥م، ع٨٧، ص ٣٥. والأميني، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥ م ، ص ١٣).

الممنوحة (السمع والبصر والفؤاد)، ومن ثم فإنه لا يمكن تحصيل هذا العلم في جيل واحد، بل هو رصيد يتنامى منذ وجود آدم وحتى قيام الساعة (دسوقي، د.ت، ص٤١).

والمسخرات التي هيأها الله للإنسان تنقسم إلى قسمين: مسخرات يحصل عليها جميع الناس في كل زمان ومكان ودون جهد مثل الماء والهواء، ومسخرات تتطلب جهدا بشريا للانتفاع بها وفهم قوانينها. وتشير الأصول العقدية في القرآن الكريم إلى أن الكون مسخر لجميع الخلق مؤمنين وكافرين،حيث إن عطاء الله في المجال المادي واحد للجميع. وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء]. لكن الفرق بين تمكين كل من المؤمن والكافر؛ أن المؤمن ينال الرضا والقبول في الدنيا والآخرة، في حين أن الكافر يستدرج بتمكينه (العبدة في البيان، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٥م، ع ٨٧، ص ص٣٥-٣٦).

كذلك تشير الأصول العقدية في القرآن الكريم إلى أن الكون يسير وفقا لأسباب ومسببات تكون قانونا عاما في غاية الدقة والإحكام والشمول لجميع الموجودات، فليس في الكون مكـان للصدفة.

" وما يسمى صدفة ما هو في الحقيقة إلا حدث يجهل الناس أسبابه. ولكن الجهل بالشيء لا يعني عدم وجود ذلك الشيء "، فالكل خاضع للخالق خضوعا تاما (زيدان، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ م ، ص ٢٣).

وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران:٨٣].

كما أن الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس].

وبذلك تنتفي أية فكرة للمصادفة أو العبث في خلق الكون، وتنتفي أيضا الخرافات والأساطير والأوهام التي تربط بين أحداث الكون ربطا خرافيا، وهو ما وقع فيه الفكر البشري في كثير من أطواره، وعند كثير من الأمم حتى في العصور الحديثة، حيث نجد كثيرا من علماء الطبيعة الغربيين؛ الذين يرتكزون في علمهم المادي على أساس القوانين؛ نجدهم في كثير من أمور حياتهم الأخرى يسلمون إلى الدجالين والعرافين ليتلقوا منهم

تفسيراتهم عن مستقبل الكـون ومستقبل حياتهـم [1].

ولتجسيد هذه العلاقة التسخيرية في حياة المرأة المسلمة المعاصرة فإنه ينبغي تنظيم أصول تربيتها على أساس فقه واسع للحياة والأحياء في الكون، ويتم ذلك من خلال الحرص على تنمية المهارات والاتجاهات التالية لديها:

١- حثهـا على التفكـر في الكـون.

٢- صقل مؤهلات اكتشاف السنن الكونية لديها.

٣- تعريفها بالأمثلة الدالة على إبداع الخالق في خلقه.

٤- توجيهها إلى وجوب الإحسان في الاستمتاع بالمسخرات الكونية.

٥- حثها على الالتزام بالقيم في تعاملهـا مع الكـون.

٦- تعريفها بسلبيات الحضارة المعاصرة على مستوى الكون.

و سوف نتناول فيما يلي كل محور من هذه المحاور بشيء من التفصيل.

أولا: التفكر في الكون:

توجه الأصول العقدية في القرآن الكريم الإنسان بنوعيه للنظر في الكون من أجل إدراك قدرة الله وعظيم إبداعه، ومحاولة اكتشاف القوانين المسيرة له، والتي تعينه على تحقيق مهمته في عمارة الكون، ومن ثم التوصل إلى شكر الخالق؛ لأن القليل من بني الإنسان هم الذين يقومون بشكر الله على نعمه. وإلى ذلك يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك].

كذلك تستهدف التوجيهات القرآنية النظر في الكون من أجل الذكرى وذلك لأن الناظر في الكون لا يرى فيه إلا الكمال والإتقان، ودقة الصنع التي تدل على عظم الصانع. وصدق الله العظيم القائل:

---

(١) هناك توجه عام في العالم الغربي نحو التنجيم ومعرفة الطالع والإيمان العميق بالظواهر النفسية غير المرئية وقراءة الفنجان وورق اللعب وغيرها بسبب الفراغ الروحي الناجم عن التوجه المادي المحموم.(انظر التنجيم: من أقدم المهن وتزدهر أسواقه في الغرب، مجلة العالم، ع ٥٥٣، ١٤١٧هـ/ - ١٩٩٧م، ص ٥٥-٥٦).

﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك]، والقائل: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٨٨].

فضخامة الكون ودقة صنعه، لابد وأن توصلنا في النهاية إلى إدراك قدرة الله، وعلمه:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝١٢﴾ [الطلاق].

وقال سبحانه أيضا: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

لكن آيات الكون لا تنجلي إلا لمن يتعبد الله بالتفكر والبحث في قوانينه ولا يكتفي بالمشاهدة العابرة؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

أما التفكر في الكون فإنه يوصل حتما إلى معرفة الله وأداء واجب العبودية تجاهه. وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١﴾ [لقمان].

ويستحث القرآن الكريم القلوب على ذكر آلاء الله، ليخرج الإنسان من بلادة الحس وألفة الأشياء، فيعبد الله على بصيرة، وهو يثني على أولي الألباب الذاكرين لله في كل حال.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١﴾ [آل عمران].

والذكر المقصود في الآيات ليس مجرد ترديد اللسان، بل الذكر العملي الذي يوصل الإنسان بربه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

ونجد الأصول العقدية في السنة النبوية تتوجه إلى المرأة كما تتوجه إلى الرجل؛

فتدعوها إلى التفكر في مخلوقات الله الدالة على بديع صنعه.

فقد روي عن السيدة عائشة ﵂ أنها قالت: أخذ رسول الله ﷺ بيدي ثم أشار إلى القمر فقال: " يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب " (ابن حنبـــل، د. ت، ج٦، ص ٢٣٧).

وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾﴾ [الفلق] ما نصه:

" إن الله (سبحانه وتعالى) أمر نبيه ﷺ أن يستعيذ من شر غاسق، وهو الذي يظلم، يقال: قد غسق الليل يغسق غسوقا إذا أظلم، إذا وقب- يعني إذا دخل في ظلامه، والليل إذا دخل في ظلامه غاسق والنجم إذا أفل غاسق، والقمر غاسق إذا وقب، ولم يخصص بعد ذلك بل عم الأمر بذلك، فكل غاسق فإنه ﷺ كان يؤمر بالاستعاذة من شره إذا وقب "(الطبري، ١٣٧٣ هـ/ ١٩٥٤ م، ج٣٠، ص ٣٥٣).

فيمكن القول: إن الحديث هنا أيضا، فيه توجيه للمرأة بالاستعاذة من شر كل مظلم إذا دخل سواء كان الليل أو القمر إذا خسف أو النجم إذا أفل. فالاستعاذة مطلوبة لما فيها من البعد عن مسالك الشطيان طلبا لرضا الرحمن.

وهذه الوصية تثير الانتباه إلى النظر والتفكر في هذه المخلوقات التي يتبدل حالها من حال إلى حال. يقول الله سبحانه وتعالى عن القمر: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس] ويقول سبحانه عن النجوم: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك:٥].

فالتفكر في هذه الآيات وغيرها يصل بالمرأة (والرجل) إلى إدراك عظمة الله سبحانه وتعالى، وأنه وحده المستحق لكمال العبودية دون سواه فتكون دوما في ذكر متجدد لما ينكشف لها من آيات الله سبحانه وتعالى خاصة في عصرنا الحاضر الذي تتوالى فيه الكشوف بفضل ما من الله به على الإنسان من تقدم علمي جعله يدرك كثيرا من القوانين والسنن التي تحكم الكون، وجعلته في الوقت نفسه يشعر بضآلة ما يعرفه إزاء ما يجهله. والنتيجة الحتمية لهذا الشعور تتمثل في زيادة الإيمان الذي أشارت إليه الآية في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

ونجد هذا السلوك واضحا لدى عدد من العلماء الغربيين الذين زادهم العلم إيمانا

بالله وخشية منه، ومن بينهم العالم الفلكي السير (جيمس جيتر) الأستاذ بجامعة كمبردج، الذي رآه العالم الهندي عناية الله المشرقي في أحد أيام الآحاد من عام١٣٢٧ هـ/ ١٩٠٩م، وهو في طريقه إلى الكنيسة، فسأله عن السبب الذي يدفع بعالم مثله إلى الذهاب للكنيسة. وقد أجابه العالم بمحاضرة عن الأجرام السماوية، ونظامها المدهش، وكان يحكي ذلك وقد بدا عليه التأثر، وانهمرت الدموع من عينيه، وكان مما قاله: " يا عناية الله؛ عندما ألقي نظرة على روائع خلق الله، يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي. وعندما أركع أمام الله، وأقول له إنك لعظيم؛ أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء، وأشعر بسكون وسعادة عظيمة، وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة. أفهمت يا عناية الله خان لماذا أذهب إلى الكنيسة؟ ". فقرأ عليه عناية الله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر] .

يقول عناية الله:

" فصرخ السير جيمس قائلا: ماذا قلت؟ إنما يخشى الله من عباده العلماء. مدهش وغريب وعجيب جدا. إنه الأمر الذي كشفت عنه بعد دراسة ومشاهدة استمرت خمسين عاما. من أنبأ محمدا به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب موحى من عند الله.. لقد كان محمد أميا، لا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن الله هو الذي أخبره بهذا السر... مدهش وغريب وعجيب حقا...."(آصفي، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ٧٠-٧٢).

وهناك أيضا الكاتبة والمفكرة اليابانية (سوي أوورا) التي توصلت من خلال تأملها في نفسها وفي الكون من حولها إلى إدراك وجود الله باعتباره المهيمن على الكون كله.

لقد عاشت الكاتبة في مجتمع لا يؤمن إلا بالعلم والمنطق، الأمر الذي يجعل الفرد فيه يشعر بكثير من الوحشة وعدم الاستقرار بسبب شعوره بعجز العالم عن توفير السعادة الحقيقة له. وقد نجم عن ذلك ظهور كثير من التنظيمات والجماعات الدينية التي تعبر عن التخبط الروحي الذي يعيشه إنسان الحضارة المعاصرة. فوجودها في هذا المجتمع جعلها

تفكر وتتوصل من خلال حدسها إلى الإيمان بالله، معتمدة على التأمل في الكون حيث شعرت وكأن صوتا يناديها من السماء بقوله: " إن الطبيعة هي سبيلك لمعرفتي "، وبعد بحث وتأمل توصلت إلى أن هناك (إرادة عظمى) تقف جميع المخلوقات منها في موقف العبودية. ومن بين ما تفكرت فيه: خلايا جسم الإنسان، والرعاية التي تحيط بالجنين في أثناء حمله وبعد ولادته، والنمل والنحل وهو يعمل بجد واجتهاد، والطيور وهي تسير في جماعات، والعمليات الحيوية داخل جسم الإنسان وسلوك جماعات من الفيلة في أفريقيا والتي كانت تسير مسافات طويلة إلى مكان صخري معين، وهناك تقوم بلعق الصخور بألسنتها ثم تعود أدراجها إلى موطنها، ولما بحث العلماء هذه الظاهرة، وجدوا أن الصخور تحوي معادن تحتاجها أجساد الفيلة. فاستنتجت أوورا أن كل هذه الأمور تخضع لمشيئة واحدة، وأن كل الكائنات في الكون تخضع لعلاقة العبودية حيث لا يوجد بينها ما يبدي أي اعتراض أو تذمر على ما يقوم به من دور؛ بل جميعها تحيا في سلام محققة التوازن التام.

لقد توصلت إلى كل ذلك بعلمها وعقلها. فأرادت أن تتأكد منه؛ لذلك فقد ذهبت إلى مصر باعتبارها ذات حضارة وتاريخ وفيها كثير من الآثار القديمة. فلما سمعت الأذان، ورأت المصلين يقفون مصطفين لا فرق بين كبير وصغير، ولاغني وفقير، وكلهم قد حضر عن طواعية دون إكراه، ولاحظت أثر الصلاة على نفوسهم من اطمئنان وسكينة تحفهم بعد أدائها. كل ذلك قد شرح صدرها للإسلام فذهبت إلى الأزهر لتعلن انضمامها إليه وتسمي نفسها (مريم نوسي). (العلم والمنطق.. في النور، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ع٧٠، ص ٤٦-٤٩).

وكذلك البروفيسور البريطاني (آرثر أليسون) الذي كان رئيسا لقسم الهندسة الكهربائية والإلكترونية في جامعة لندن. فقد حضر إلى القاهرة في عام ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م؛ ليشارك في أعمال (المؤتمر الطبي الإسلامي الدولي الأول) حول الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. وكان يحمل معه إعجابا بالعقيدة الإسلامية باعتبارها عقيدة منطقية يقود إليها التفكير في صنع الله ومخلوقاته في الكون.

وقد حمل أليسون معه إلى المؤتمر بحثين: الأول حول (أساليب العلاج النفساني والروحاني في ضوء القرآن الكريم)، و الآخر عن (العلاقــة بين النوم والموت في ضوء

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر:٤٢].

وبعد إلقائه لبحثه، استمع أليسون للأبحاث الأخرى، وتناقش مع العلماء، حتى إذا كانت الليلة الختامية للمؤتمر أعلن إسلامه أمام مراسلي وكالات الأنباء العالمية، حيث ذكر بأنه من خلال اهتماماته بعلم النفس وما وراء النفس؛ تعرف على الأديان؛ فدرس الهندوسية [١] والبوذية[٢] والإسلام، وقارن بينها. فوجد الفارق الكبير الذي جعله يوقن بأن الدين الإسلامي هو الأكثر مسايرة لنظرته وسلوكه الذي نشأ عليه؛ حيث لم يكن يشرب الخمر ولا يأكل الخنزير، وكان يشعر بوحدانية الإله الخالق المسيطر على الكون.

كذلك فقد وجد أن الإسلام لا يتناقض مع العقل أو العلم. وهذا ما جعله يختاره دينا له. وهو يركز على الحقائق العلمية في الإسلام كمدخل للدعوة الإسلامية في الغرب الذي يعتقد بأن الإنسان " عبارة عن عدة كيلوجرامات محدودة من الأنسجة بالإضافة إلى عقل.... " (الجهيني، د. ت، ص ٩٤-٩٦).

إلا أن قلة من العلماء الغربيين هم الذين توصلوا إلى الحقيقة التي توصل إليها السير جيمس جيتر، ومريم نوسي وعبد الله أليسون؛ لأننا نجد أن الكثرة منهم قد اغتروا بما وصلوا إليه من علم، وتوهموا أنهم يمكن أن يستغنوا بعلمهم وعقولهم عن الدين، وحجبهم غرورهم عن رؤية أي شيء خارج النطاق المادي المحسوس، ولما كان الدين يعتمد على قواعد غيبية خارجة عن نطاق المادة، وينطلق من منطلقات لا مادية، فقد اعتبره الإنسان الغربي ظاهرة غير علمية، ولم يوفه ما يستحقه من التفكير والاهتمام أو اعتباره أنه علم أصلا. (الآصفي،١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م، ص ص١١ -١٢).

وتوجه الأصول العقدية في القرآن الكريم إلى أن التفكر في الكون ليس له حد معين، حيث نجد من بين آياته ما يحث عل التفكر في بدء الخلق ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

---

(١) **الهندوسية أو الهندوكية**: اصطلاح أوروبي يطلق على عقائد معظم شعب الهند وطقوسه. وليس لها قانون ثابت مكتوب بل بعض كتب قديمة عبارة عن شروح دينية. وآلهة الهندوسية كثيرة. (الموسوعة العربية الميسرة، د.ت، ص ١٩٠٦).

(٢) **البوذية**: هي الديانة التي وضعها بوذا الذي عاش حوالي سنة ٥٠٠ قبل الميلاد. وكان بوذا ابن أحد ملوك الهند، فتخلى عن الملك والجاه وكرس حياته لهذا الدين، وانتقلت تعاليمه إلى كثير من البلدان. (دائرة معارف الناشئين، د. ت، ص ٧٧).

قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت].

ومنها ما يحث على التفكر في الماضي والحاضر؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الروم].

ومنها ما يحث على التفكر في مخلوقات الله؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية]. وغير ذلك من الآيات.

لكن ما تجدر الإشارة إليه؛ هو أن الأصول العقدية في القرآن الكريم توجه الإنسان إلى عدم إعمال عقله فيما وراء الكون؛ لأن ذلك خارج عن نطاق العقل، فهو ليس مجالا له، وقد كفاه الوحي العناء حين أمده بالمعارف التي يحتاجها عن عالم الغيب.

وآيات القرآن الكريم التي تحث على التفكير وأهمية التدرب عليه؛ تشدد على أهمية التثبت قبل إصدار الأحكام، بحيث يكون صفة ملازمة للإنسان في سلوكه في حياته اليومية وفي علاقاته مع الآخرين، ولا تقتصر على مجال الدراسة والبحث (الكيلاني ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ٦٧)، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

فينبغي الاهتمام بالتكوين العقلي للمرأة المسلمة المعاصرة بحيث تستخدم في ذلك الأساليب والوسائل التربوية الحديثة كافة التي تساعد على تنمية القدرات العقلية لديها من خلال جميع المؤسسات التربوية المباشرة وغير المباشرة، بحيث توجه تلك القدرات توجيها إيجابيا يحافظ عليها من التشوه الذي يمكن أن يلحقها إذا ما تركت لتنمو دون توجيه؛ وذلك لأن القدرات العقلية يمكن أن تتأثر بالوهم والخرافة والجهل بعيدا عن التفكير العلمي، وهذا يمكن أن يحدث إعاقة لعقل المرأة، تدفعها إلى الخوف من مظاهر الطبيعة؛ فتصبح آيات الله دليلا على ضعف الإيمان بدلا من أن تكون سببا في تدعيم

الإيمان بالله وزيادته [١].

فالخوف من مظاهر الطبيعة يمثل دليلا على ضعف الإيمان الذي يجعل الإنسان يخاف من مخلوقات مثله وينسى الخالق الذي يمكن أن يحفظه من أي شرور إذا ما تقدم إليه بالطاعة التي تحقق كمال عبوديته له.

وقد أشار توينبي[٢] إلى أن العقبة الكبرى التي وقفت في سبيل تسخير طاقات الكون؛ تمثلت في الشرك الذي ساد العقل البشري لزمن طويل حيث حول طاقات الطبيعة إلى آلهة وجعل البشر يعبدون طاقات الكون بدلا من تسخيرها، وأن عقيدة التوحيد هي التي جعلت الإنسان ينظر إليها على أنها مخلوقات مثله، ومن ثم بدأ يفكر في تسخيرها (خان، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص ١٤).

ويشير الدكتور الكيلاني إلى أن القدرات العقلية يمكن أن تتعرض للحالات التي تتعرض لها القدرات الجسدية من صحة ومرض وموت؛ " فهي تصح بالعلم والعمل، وتمرض بالوهم والخرافة، وتموت بالجهل المطبق." وهي تحتاج إلى تزكية [٣] مستمرة من

---

(١) مازالت الكثيرات من المسلمات المعاصرات يؤمن بالدجل والخرافة والسحر والشعوذة، مما يدفع بهن إلى الخوف مما لا وجود له لدرجة تجعلهن يفسرن كل صوت أو حركة طبيعية تفسيرات بعيدة عن الحقيقة. بل إن من النساء من تخاف من الحشرات والقوارض، فتجد الواحدة منهن تهرب منها بدلا من التصدي لها وتطهير المكان الذي هي فيه منها. بل إن ذلك ربما ينسحب على المتعلمات أكثر من غيرهن. وقد أرسلت إحدى الفتيات إلى مجلة إسلامية تستفسر ما إذا كان الخوف المسيطر عليها وعلى أمها من الرعد والبرق والغيوم والشفق الأحمر والرياح وراثة أم لا (الدعوة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م، ص ٤٤). بل إن إحدى الأمهات في ولاية بدبد بعمان قد قامت بحبس أولادها العشرة في غرفة مظلمة اتباعا لنصيحة إحدى الصحف بـ " عدم التحديق في الشمس طويلا أثناء ظاهرة الكسوف" لكن وزيادة في الاحتياط، فقد قررت الأم حبس أولادها ومنعهم من الذهاب إلى المدرسة، ولم تخبر زوجها الذي فوجئ بذلك عند عودته إلى المنزل، فطلب منها إطلاقهم لكن رفضها دفعه إلى طلاقها بعد زواج طويل وصفه الجيران بأنه كان قائما على الود والعشرة الطيبة. (الشرق الأوسط، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ع ٦١٧٦).

(٢) **أرنولد جوزيف توينبي** (١٨٨٩ م / ١٣٠٧ هـ) مؤرخ إنجليزي. درس بأكسفورد، ثم علم بها. كتب سلسلة من الكتب السنوية للتاريخ الدولي بعنوان: (عرض للشئون الدولية)، ولكنه وصل إلى قمة الشهرة بكتابه (دراسة في التاريخ) الذي أخرجه في عدة مجلدات، وهو بحث لنمو الحضارات وتطورها وانحلالها. (الموسوعة العربية الميسرة، د. ت، ص ٥٦٦).

(٣) انظر معنى التزكية ص٥٥١.

أجل المحافظة عليها في حال الصحة ووقايتها من المرض. وذلك يتم من خلال **ثلاثة أمور**:

الأول: **تزكية مسار الفكر**: بحيث توجه القدرات العقلية نحو الأهداف التي خلقت من أجلها "وهي تدبير شئون الإنسان، وتنظيم علاقاته بالخالق والكون والإنسان والحياة والآخرة."

الثاني: **تزكية أشكال التفكير**: وذلك بتجنب أشكال التفكير الخاطئة، والتقيد بأشكال التفكير السليمة، بحيث يدرب إنسان التربية الإسلامية على النقد الذاتي، والتجديد، والتفكير العلمي، والتفكير الجماعي، والتفكير الشامل، والتفكير السنني، والانفتاح على خبرات الآخرين، وذلك بدلا من التفكير التبريري، والتقليد، والظن والهوى، والتفكير الفردي، والتفكير الجزئي، والتفكير الخوارقي، والانغلاق على الخبرات التقليدية والجمود عليها.

ثالثا : **تزكية أساليب التفكير**: وهذه تتم من خلال تدريب القدرات العقلية على التفكير العلمي المنظم. (الكيلاني، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص ١٣١-١٤٠)

ثانيا: مؤهلات اكتشاف السنن الكونية:

أمد الله الإنسان بمؤهلات تمكنه من إعمال فكره والتوصل إلى اكتشاف السنن الكونية. وهذه المؤهلات تتمثل في أدوات المعرفة التي تتكون من الحواس والعقل والوحي. وسوف نتحدث عن هذه المؤهلات بشيء من التفصيل فيما يلي:

١- الحواس:

وهي بمثابة النوافذ التي يطل الإنسان من خلالها على الكون، وبدونها يتعطل النمو السليم للفرد، وإلى جانب ذلك فإنها تمثل أيضا أدوات يستعين بها العقل، وبدونه تفقد الحواس قيمتها. وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٧١].

وتكرر الأصول العقدية في القرآن الكريم التوجيه إلى أهمية الاستفادة من الحواس وعدم تعطيلها، أو إهمالها أو اتباع الظنون والأوهام؛ ولذلك نجد كثيرا من آيات القرآن الكريم تنتهي بعبارات مثل: ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ ، ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ، ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ ..... إلخ.

فينبغي في تربية المرأة المسلمة المعاصرة الاهتمام بتدريبها على حسن استخدام حواسها، والحفاظ عليها مما قد يشتتها، فتنعدم لديها إمكانية الاستفادة منها، ومن ثم تنتكس لتكون ممن يقول عنهم القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف].

والمعوقات التي يمكن أن تقف حاجزا يمنع من حسن الاستفادة من الحواس هي عوامل كثيرة؛ منها ما هو نفسي ومنها ما هو انفعالي، ومنها ما هو اجتماعي، ومنها ما هو مادي. وقد بحثها كثير من العلماء المسلمين تحت موضوعات مثل: الرياء، والعجب والكبر، والحسد، والغضب، وشهوات المال، والجاه، والنساء. فهذه المشتتات يمكن أن تمنع الحواس من أداء دورها في مساعدة العقل على التدبر في السنن الكونية من أجل التوصل إلى معرفة الله (الكيلاني، ١٤١٦ هـ ١٩٩٥م، ص ١٤٦-١٤٧).

كذلك ينبغي توجيه المرأة المسلمة المعاصرة من خلال التربية إلى الأدوار المهمة التي تقوم بها الحواس في تحقيق الانتفاع بمسخرات الكون، وتوجهها إلى كيفية شكر الواهب عليها من خلال استخدامها فيما وجدت له، وصرفها عما لا يحل لها. فأداء واجب الشكر على حاسة السمع يكون باستخدامها في سماع الطيب من القول، والابتعاد عن سماع السيئ منه، ويدخل ضمن ذلك الأغاني، والأشعار، والقصص المبتذلة التي تزين السوء. وأداء واجب الشكر على حاسة البصر يكون باستخدامه في النظر إلى مايفيد، وبمنعه عما لا يحل النظر إليه، ويدخل ضمن ذلك النظر إلى الصور والأفلام الخليعة، وغيرها من المناظر المثيرة للشهوات، والتي قد تغري بارتكاب المآثم.

ونجد التوجيهات النبوية تبين إمكانية إساءة الإنسان لاستخدام ما وهبه الله من حواس في الحديث الذي يقول فيه الرسول ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: " كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش والرجل زناها الخطا." (مسلم، د. ت، ج٤، القدر / ٦، ص ٢٠٤٧).

بل إن العلم الحديث يشير إلى أن هناك حدودا معينة لحواس الإنسان، إذا ما تعداها

أرهقت إرهاقا شديدا، فمثلا: تؤثر شدة الإضاءة على قوة الإبصار، وكذلك ارتفاع معدلات الضجيج يؤثر على السمع. و بالإضافة إلى ما تحدثه من خلل في عمل الحواس؛ فإن آثار ذلك تنعكس أيضا على نفسية الإنسان وأعصابه، فيصاب بالتوتر[1].

وفي تربية المرأة المسلمة المعاصرة؛ من الواجب تنبيهها إلى الآثار السلبية التي يمكن أن تنجم عن إساءة استخدام الحواس في الدنيا والآخرة.

٢- العقل:

العقل هو الأداة التي يفهم بها الإنسان، ويتأمل، ويفكر، ويتعلم. وهو قوة مدركة خلقها الله في الإنسان ليكون مسئولا عن أعماله (أبو العينين، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م، ص ٥٥).

والعقل يملك القدرة على الربط بين ما يرد إلى الإنسان من أحاسيس، وبين ما لديه من معلومات عن ذلك الشيء، ولكنه لا يكتفي بمجرد الإدراك، وإنما يقوم بعد ذلك باستخلاص الحقائق المجردة، فينتقل بذلك من المحسوس إلى المجرد (عبد الله، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص ٢٣٢).

وتشير الأصول العقدية في القرآن الكريم إلى أن للعقل الإنساني مجالا رحبا يتفاعل فيه مع الكون ملاحظة وتجربة وتطبيقا. لكن هذا المجال محدود؛ إذ لا يمكن للإنسان أن يتجاوزه إلى ما لا قدرة له على الإحاطة به، لأن في ذلك استخداما للعقل فيما لم يخلق له، وتبديدا لطاقاته فيما لا قدرة لها على الوصول إليه.

وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء].

كذلك توجه الأصول العقدية في القرآن الكريم إلى أن الإنسان لا يمكنه أن يستفيد من عقله تمام الاستفادة إلا إذا أعمله تفكيرا في الكون. وإلى ذلك تشير كثير من آيات القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران].

---

(١) انظر: الحفار ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠م، ص ٢٩٣-٣٠١.

فآيات الكون لا تنجلي إلا لمن يعمل عقله تفكيرا في بديع صنع الله، ليصل من وراء ذلك إلى اكتشاف قوانين التسخير، التي تمكنه من تحقيق إعمار الكون.

وقد زود الله الإنسان بهبات عقلية تمكنه من إعمال فكره ليستدل بها حوله على قدرة خالقه كإدراكه للبدهيات، وعدم التناقض، ورفضه الجمع بين النقيضين في آن واحد. فهذه تمثل ضوابط للفكر، وتمثل في الوقت نفسه معايير أخلاقية في منهجية البحث في أسرار الكون(عبد المتعال في المنهجية الإسلامية..، ١٤١١ هـ/ ١٩٩٠ م، ص ٢٣٩).

والإنسان يتلقى العلم والمعرفة عن طريق الحواس التي ترسل المعلومات إلى القوى العقلية لتقوم بفهمها وإدراكها، فأي تعطيل للقوى العقلية بسبب الهوى أو بسبب التقليد والجمود تنعدم معه الاستفادة من الحواس، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[الحج:٤٦] (الكيلاني، ١٩٩٥م، ص ١٤١).

فينبغي في تربية المرأة المسلمة المعاصرة الاهتمام بتنمية القدرات العقلية لديها وصقلها بحيث تتمكن من الاستفادة منها في واقع حياتها، وذلك من خلال العمل على أقلمة الواقع وتكييفه وفقا لتصورها العقدي، والابتعاد عن أية ممارسات تتعارض مع ما يدعوها إليه إسلامها، ويدخل ضمن ذلك الابتعاد عن التفكير الخرافي [1] والشعوذة والدجل وكذلك الابتعاد عن الممارسات التي تتنافى مع مبدأ الإحسان في التعامل مع الكون كالإسراف وعدم النظافة وغير ذلك.

وأهم ما ينبغي التركيز عليه في إعداد المرأة المسلمة المعاصرة؛ هو تنمية قدراتها العقلية لتصبح قادرة على التفكر والتدبر في الكون وصولا إلى تقدير عظمة الخالق، واستخدام الأساليب التربوية كافة التي تسهم في تكوين الشخصية المستقلة القادرة على الإسهام في تطوير المجتمع من خلال إدراك سلبياته والعمل على إزالتها. ويحتاج الأمر من المؤسسات التربوية المختلفة إلى استخدام الأساليب الملائمة للعصر والتي تخاطب المرأة المسلمة

(١) هناك كثير من الخرافات التي مازالت بعض النساء المسلمات يؤمن بها حتى الآن خاصة في الريف، من ذلك:
١- أن كنس المنزل بعد سفر أحد أفراد العائلة قد يتسبب في عدم عودته.
٢- أن كنس المنزل ليلا يولد الفقر، أو يتسبب في التعرض لإيذاء الجن.
٣- أن إخراج أي شيء من المنزل بعد الغروب معناه خروج الزوج بموت أو طلاق أو غيره، فلا يعود إلى المنزل ثانية. (القيسي، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩١ م، ص١٩٢) .

المعاصرة التي تعيش في عصر الكشوف والمخترعات، بحيث تحفز قدراتها المختلفة بما يساعدها على معايشة عصرها.

٣- الوحي:

يمثل الوحي الأداة الوحيدة للمعرفة في ميدان الغيب، بينما الحواس والعقل هما أداتا المعرفة في ميدان الآفاق والأنفس. وتتكامل الأدوات الثلاث من أجل الوصول إلى الغاية الرئيسية، وهي معرفة الله.

وتشير آيات القرآن الكريم إلى هذه الأدوات ضمنيا في حديثها عن أمور الغيب التي جاء بها الوحي، وتوجهها إلى النظر في الكون وما فيه من مخلوقات، وهي دعوة إلى استخدام الحواس أولا، ثم إلى استخدام العقل الموصل إلى خالق هذه الكائنات.

قال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾ [الفجر].

والله سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان، ووهب له العقل، يعلم قصور العقل عن إيصال الإنسان إلى الهدى؛ لذلك هداه سبحانه إلى المنهج الصحيح لحياته، وأعلمه بذلك من خلال الرسل، وجعل وظيفة العقل التلقي عن الرسل، والتدبر فيما يأتون به من آيات الوحي، ومحاولة الربط بينها وبين آيات الكون.

فينبغي على التربية أن تحمي عقل المرأة المسلمة المعاصرة من الانحراف وذلك من خلال العمل على تعزيز الارتباط بين قدراتها العقلية والوحي بحيث تتدبر في آيات الكتاب لتدرك أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، ولتدرك الخطأ الذي ارتكبته التربية الحديثة حين فصلت بين العقل والدين، فأوصلت الإنسان إلى ألوان من الشقاء والدمار لنفسه وللكون من حوله.

* * *

ثالثا: أمثلة لإبداع الخالق فى خلقه:

ينبغي على التربية أن توجه المرأة المسلمة المعاصرة إلى التفكر في الكون وملاحظة إبداع الخالق في خلقه، بحيث تبدأ من نفسها فتحاول إدراك معنى قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات].

فالإنسان يعد أعظم عجيبة من عجائب صنع الله حيث يجمع بين الكيان المادي والروحي، وكل فرد فيه متفرد في خصائصه عن غيره بحيث يشكل عالما قائما بذاته.

بل إن مكونات الإنسان وحدها تعد أكبر دليل على عظم قدرة الله سبحانه وتعالى، وبديع صنعه، ولو لم يكن في الكون كله سوى الإنسان لكفى بذلك واعظا له؛ فالنفس والروح والعقل، كلها مخلوقات لا قدرة للعقل على الإحاطة بها؛ لأنها ليست مادية، وهي تمثل أكبر تحد يدعو الإنسان إلى التواضع لكونه عاجزا عن إدراك بعض مكونات نفسه. وكذلك الأمر بالنسبة للعوامل النفسية من تخيل وتذكر وانفعال، والنواحي الحيوية وغيرها، وصدق الله العظيم: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات].

ويؤكد العلم خضوع الإنسان وإذعانه لسنن الله إذعانا تاما، وذلك من خلال ما يكشفه كل يوم من القوانين التي تنظم شئون حياة الإنسان الجسدية والتي تؤكد أن جميع وظائف الجسم إنما تتم وفقا لسنن الله وقوانينه.

فهناك الغريزة الجنسية التي جعلها الله سبحانه وتعالى وسيلة لانجذاب النوعين كلا منهما نحو الآخر. فالتفكر فيها وفي وسائل الجذب التي جعلها الله بين كل زوجين من مخلوقاته، أمر لا ينتهي العجب منه.

وهناك أيضا خلايا جسم الإنسان، التي تحوي كل منها ستة وأربعين كروموسوما فيما عدا نوعين من الخلايا، وهي الخلايا التناسلية، أي الحيوان المنوي والبويضة، التي يحتوي كل منهما على نصف العدد، لحكمة بالغة وهدف عظيم يحققه اندماج هذه الخلايا لتكوين الجنين، ليصبح عددها كاملا بعد الاندماج. (الأشقر، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ١٠٠-١٠١).

وهناك أيضا رعاية الله التي تحيط بالجنين وهو في بطن أمه من كل جانب، بحيث ينمو في مأمن من الأخطار، تحيطه ثلاثة من الأغشية، تصدق ما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ [الزمر:٦].

وتستمر رعاية الله للجنين وحمايته بعد ولادته، وذلك من خلال لبن الأم الذي يحوي مواد وقائية تشكل مناعة ضد الأمراض، إلى جانب أنه يتغير بما يتناسب واحتياجات

الطفل كما ونوعا (سيد قطب، ج٤، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م، ص ٦٤٣٨).

وهناك أيضا عضلات الرحم عند الأنثى والتي أثبت العلم أنها أقوى عضلات في جسم الإنسان أو في الحيونات الثديية عموما، مما يساعد على دفع الجنين للخروج من بطنها (الأشقر، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ١٠٢).

وقد أثبت العلم الحديث أن لكل شيء في الوجود زوجا، مما جعل العلماء يقولون بوجود عالم آخر زوج لعالمنا هذا، وأنه يتمتع بخواص لا يتمتع بها عالمنا هذا مثل الأبدية. وفي ذلك تصديق لما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات] (خان، ١٤٠٦- ١٩٨٦م، ص١٨).

فجميع الاكتشافات الحديثة تظهر آلاء الله في الكون، لكن الأهم من ذلك أنها تثبت عدم قدرة الإنسان على اكتشاف قوانين حياته بنفسه، وهذا ما حدا بالكاتب الأمريكي ألكساس كاريل إلى وضع كتاب بعنوان (الإنسان ذلك المجهول). بل إن العلماء قد توصلوا إلى أن ما عرف عن الكون حتى الآن؛ لا يمثل سوى جزء ضئيل جدا من الحقيقة، مما حدا بإحدى دور النشر إلى إصدار كتاب بعنوان (دائرة معارف الجهل) [(١)]، اشترك في تأليفه مائة وخمسون من كبار علماء العالم، حيث أوضحوا فيه كثيرا من الظواهر المتعلقة بالكون وبالإنسان والتي مازالت دون تفسير (خان، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص١٨).

ويعلق سيد قطب على هذا الجهل بقوله: إنه يجب أن يبقى الإنسان على صلة بربه مهتديا بمنهجه فلا يغتر بفتوحات عقله في عالم المادة ويندفع في غرور بعيدا عن ربه فيضع لنفسه مناهج مستقلة. (سيد قطب، ١٤١٥هـ/ ١٩٨٨م، ص ٣٣).

فينبغي في تربية المرأة المسلمة المعاصرة توجيهها إلى أهمية الاستدلال بالكشوفات الحديثة على قدرة الله وعظمته ليولد ذلك في نفسها زيادة في الإيمان بالله وتقواه وخشيته.

ومن بين العلماء الغربيين الذين توصلوا إلى هذه الحقيقة؛ الدكتور (تسيل)، رئيس قسم الحيوان بجامعة سان فرانسيسكو، **حيث يقول:**

" أضاف البحث العلمي خلال السنوات الأخيرة أدلة جديدة على وجود الله زيادة على الأدلة الفلسفية التقليدية... ولقد من الخالق على جيلنا... بكشف كثير من الأمور

---

(١) (Encyclopedia of Ignorance) وقد صدرت عام ١٩٧٧م في شهر ديسمبر عن دار نشر بيرغامون البريطانية. (خان، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص ١٩).

حول الطبيعة. ومن الواجب على كل إنسان.... أن يستفيد من هذه الكشوفات العلمية في تدعيم إيمانه بالله "(مونسما وآخرون، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م، ص ٢٦-٢٧).

رابعا: الاستمتاع بمسخرات الكون:

توجه الأصول العقدية في القرآن الكريم إلى أن الجمال يمثل آية من آيات الله سبحانه وتعالى في خلقه، وأن الاستمتاع به فيه امتثال لأمر الله سبحانه وتعالى الذي يقول: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ﴾ [الأنعام:٩٩]، ويقول أيضا: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ [ق:٦].

وفي تربية المرأة المسلمة المعاصرة لا بد من توجيهها إلى الإحساس بجمال الصنعة والاستدلال بها على جودة الصانع، وقدرته، إدراكا لوجوده، وأداء لحقه في شكره على نعمه. وذلك لأن الاستمتاع بالمخلوقات من الناحية المادية دون الإحساس بدلالاتها بجعل الإنسان كالحيوان في عدم استفادته من القدرات التي وهبه الله إياها، حيث ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف].

وينسحب الإحساس بالجمال وأداء حقه بالشكر على جميع ما تتعامل معه المرأة من مخلوقات كالحيوانات والنباتات، والجمادات، بحيث تتخلق بأخلاق الله تعالى معها، فتنطلق في تعاملها مع جميع المخلوقات من مبدأ العدل والإحسان الذي يثمر عن الرحمة التي تملأ قلبها فتعم كل من حولها، اقتداء بالرسول ﷺ الذي أرسله الله رحمة للعالمين. وقد جاء عنه ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: " لاتنزع الرحمة إلا من شقي." (أبو داود، د.ت، ج٤، الأدب / رقم ٤٩٤٢، ص ٢٨٦).

وتوجه الأصول العقدية في السنة النبوية إلى أهمية تذوق معنى الرحمة في التعامل مع الكائنات المختلفة، وذلك من خلال توجيهات الرسول ﷺ لأصحابه من أجل ممارسة هذا السلوك في واقع الحياة.

فقد روى عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في

سفر فرأينا حمرة [1] معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش[2] فجاء النبي ﷺ فقال: " من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها"، ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال: " من حرق هذه؟ قلنا: نحن. قال: إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار " (أبو داود، د.ت، الأدب/ ٥٢٦٨، ج٤ ، ص ٣٦٧-٣٦٨).

والأنعام من نعم الله التي خلقها للاستفادة منها. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل]. وينبه الرسول ﷺ إلا أنه لا يجوز مقابلتها إلا بالإحسان ، فلا تعذب بأي شكل من الأشكال، يقول ﷺ فيما رواه ابن عباس رضي الله عنهما : " لا تتخذوا شيئا فيه الروح غرضا " (مسلم، د.ت، ج٣، الصيد/ ١٢، ص ١٥٤٩)، ويقول أيضا: " إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته " (مسلم، د.ت، الصيد/ ١١، ج٣، ص ١٥٤٨).

بل إن التربية النبوية لتتوجه إلى المرأة بصفة خاصة، فتحثها على الرفق بالحيوان. فقد حدث أن ركبت السيدة عائشة رضي الله عنها بعيرا، كانت فيه صعوبة، فجعلت ترده، فقال لها رسول الله ﷺ:" عليك بالرفق. " وفي حديث آخر أنه قال لها: " يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على سواه " (مسلم، د. ت، البر/ ٢٣، ج٤، ص ٢٠٠٤).

فكل هذه النصوص تدل على أهمية تربية المرأة المسلمة المعاصرة على التعامل المسئول مع المسخرات الكونية باعتبارها من نعم الله التي لابد من الاستمتاع بها وفقا لتوجيهات الله سبحانه وتعالى.

---

(١) حمرة بضم الحاء المهملة بعدها ميم مشددة وقد تخفف: طائر صغير كالعصفور. (عبد الحميد في أبي داود ، د.ت، ج٤، ص ٣٦٧).

(٢) ترخي جناحيها وتدنو من الأرض. (عبد الحميد في أبي داود ، د.ت، ج٤، ص ٣٦٧).

خامسا: الالتزام بالقيم الإسلامية في أثناء التعامل مع الكون:

إن الزائر لبلاد الغرب يدهش ويعجب لأول وهلة لما يجده من بون شاسع بين الحياة هناك، وفي بلاده، ولا يجد مجالا للمقارنة بين شبكة العلاقات العامة في البيئتين، فالخدمات هناك يسيرة سريعة، وتغطي حاجات الإنسان اليومية كافة بدقائقها، إلى جانب التعامل الأخلاقي المتميز بالصدق والجدية والإتقان والأنشطة الجادة في جميع مجالات الحياة بما يعمل على الرقي بها دوما، في حين أن كل ذلك مفتقر إليه في ديار المسلمين؛ لذلك يعمد المنبهرون في حال رجوعهم إلى الدعـوة إلى التغرب، باعتباره بديلا جاهزا لحالة التخلف التي يعيشها المجتمع.

وهؤلاء لا يدركون الوجه الآخر للحقيقة؛ والمتمثل في البعد المعنوي للإنسان، وهذا لا يراه إلا المتمعن في حقائق الأمور، ممن لا يكتفي، ولا يؤخذ بظواهر الأشياء، والذي يمكنه اكتشاف حاجة الغربيين إلى العمق الروحي، ليحدث التوازن بين مطالب حياة الإنسان المختلفة. وتبدو مظاهر ذلك في النتائج الخطيرة الملاحظة عليهم من التسيب الأخلاقي وموجات التحلل بين الشباب، والانحلال في العلاقات الاجتماعية، وتفككـها، وازدياد معدلات الجريمة، والزيادة في الإصابة بالأمراض النفسية والأمراض المستحدثة وغيرها.

فإذا ما بحثنا عن الأسباب التي أدت إلى هذه النتائج؛ وجدناها متمثلة في القيم المادية التي وجهت التقدم العلمي في الغرب بعيدا عن القيم الروحية.

فقد حدث في القرن الثامن عشر الميلادي، أن اعتقد علماء الطبيعة بإمكانية تطبيق المنهج التجريبي في جميع المجالات، بما فيها الإنسان. لكن اعتراض علماء الإنسانيات على ذلك بسبب اختلاف طبيعة الإنسان عن طبيعة غيره من عناصر الكون، أدى إلى تخلف العلوم الإنسانية عن العلوم الطبيعية، التي تطورت في إطار النزعات الممتدة من الماضي، والمتمثلة في التنافس والفردية والاستغلال، والعنصرية والطبقية، والاحتكار، مما أدى بالدول المتقدمة إلى تسخير العلم ليكون نعمة لها، ونقمة على غيرها، فكان من جراء

ذلك، السباق العنيف بين الأمم، من أجل السيطرة على العالم. وقد كان لكل ذلك نتائجه السلبية على شعوب العالم، والتي بدأت بالحربين العالميتين، وانتهت بالتردي الأخلاقي وتضاؤل الحس الإنساني. وأعراض ذلك تتمثل في الإدمـان على المخدرات، والجريمة، والعنف، واليأس، وانهيار الروابط الأسرية، وأسلحة الدمار وغيرها من الآثار التي فعلت فعلها في المجتمعات الغربية، وبدأت تشيع في المجتمعات الإسلامية (الكيلاني، ١٩٩٥، ص ٣٥-٣٩، محمد عفيفي، د.ت، ص٥-٨).

ويؤكد ذلك هوفمان [١] بقوله:

"إن الدوافع التي مكنت اقتصاديا وعلميا للرواج المنقطع النظير للفلسفة الوضعية[٢]، والمنهجيـة العلمية اللتين جعلتا من القرن التاسع عشر (القرن المعدوم الإله)، دوافع إن لم تكن إلحادية في حقيقة الأمر؛ فإنها تكاد تقتصر في معظمها أو ترتكز على النظرة اللا أدرية في رؤية الحياة الدنيا، والتي كان سدنتها فويرباخ بشكل فج، وماركس، وداروين، ونيتشه، وسيجموند فرويد [٣] منذ ذلك الحين أصبح المذهب

---

(١) د. **مراد هوفمان**: ألماني مسلم، سفير، ومؤلف، يحمل شهادة الدكتوراه في القانون من جامعة هارفارد. من مؤلفاته؛ طريق فلسفي إلى الإسلام، دور الفلسفة الإسلامية، يوميات مسلم ألماني. اعتنق الإسلام يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٨٠ م / ١٤٠٠ هـ، وكانت أول معرفته بالإسلام في الجزائر يوم ٢٨ مايو ١٩٦٢م / ١٣٨٢ هـ؛ حين رأى صمود وصلابة المجاهدين الجزائريين، ولم يفهم من أين يأتيهم هذا الدعم الخفي حتى قرأ القرآن الكريم .م (هوفمان، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).

(٢) **الوضعية**: مذهب فلسفي يقيم المعرفة على نطاق الخبرة الحسية، وأما ما يجاوز الخبرة فمعرفته مستحيلة أو خالية من المعنى. رائد المذهب هيوم، وكونت من دعاته. ونشأت منه الوضعية المنطقية التي ترجع استحالة معرفة الإنسان لما يجاوز خبرته إلى منطق اللغة لا إلى أساس نفسي. (الموسوعة العربية الميسرة، د. ت، ص ١٩٥٤).

(٣) **فويرباخ**: (١٨٠٤ - ١٨٧٢م) (١٢١٩-١٢٨٩هـ): فيلسوف ألماني، اعتنق أولا المذهب الهيجلي ثم نبذ المثالية المطلقة واعتنق المادية الطبيعية. تأثر بكتاباته ماركس و أنجلز. (الموسوعة العربية الميسرة د.ت، ص ١٣٣٩)

ماركس: (١٨١٨-١٨٨٣م) / (١٢٣٤-١٣٠١هـ) فيلسوف الشيوعية التي اندثرت، وهو من أصل يهودي ألماني. اضطهد في ألمانيا بسبب نشاطه الثوري، فانتقل إلى باريس حيث تعاون مع فردريك أنجلز وأصدرا معا الوثيقة الشيوعية الأولى عام ١٨٤٨م (١٢٦٥هـ). (الموسوعة العربية الميسرة، د.ت، ص ١٦١٥)

داروين: (١٨٠٩- ١٨٨٢م) / (١٢٢٤- ١٣٠٠هـ)، شارلز روبرت دارون. عالم طبيعي ومؤلف إنجليزي. أشهر مؤلفاته مؤلف عن أصل الأجناس بالاختيار الطبيعي، كان يقول بتطور الأجناس دون أسباب خلقية

العقلي، الذي لا يعترف إلا بالعقل، ولا يسمح إلا بقدر ضئيل من الحواس؛ مصدرا للمعرفة، الأيديولوجية (الدينية) المسيطرة في الغرب سيطرة فعالة. "(هوفمان، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص ٢٥).

ويضيف قائلا:

" لقد غدت الجماهير العريضة، نتيجة ممارستها الواقعية للذاتية [١] وللنسبية [٢]، تعيش نوعا من الإلحاد الساذج المسطح الأبعاد، متمثلا في عبادة آلهة جديدة هي: السلطة، والثراء، والجمال، والشهرة، والجنس. لقد رضي هؤلاء (الملحدون بالممارسة)، الاطمئنان والركون إلى العلوم الطبيعية عوضا عن الدين الذي أقصته أو هجرته، علما بأن العلوم الطبيعية عاجزة عن الخوض في استكناه المسائل الروحية، إذ يرى أولئك أن تلك المسائل (ونحوها من أمور الغيب) نوعا من البقايا المتحللة (ناتج انحلال) في طريقه إلى الزوال مع المسيحية اللاعقلانية، اللامنطقية " (هوفمان، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص ٢٥).

وعلى العكس من ذلك نجد الأصول العقدية في القرآن الكريم لدينا؛ تؤكد على القيمة

وأن الكائنات جميعها ترجع إلى أصل واحد. وقد قبل البعض أقواله وأنكرها البعض الآخر وأبطلوها بأدلة دينية. (البستاني، د.ت، ص ٥٤٧-٥٤٨) =

= **نيتشه:** (١٨٤٤-١٩٠٠م) / (١٢٦٠-١٣١٨هـ): فردريك فلهلم نيتشه: فيلسوف ألماني، توفى أبوه وهو صغير فربته أمه على التقوى. أصيب باضطرابات عصبية انتهت به إلى مرض عقلي خطير. في فلسفته شاعرية وغزارة إحساس تدل على حساسية نفسه. من مؤلفاته " هكذا تكلم زرادشت"، وله آثار عميقة في جوانب كثيرة من الفكر الألماني. (الموسوعة العربية الميسرة،د.ت، ص١٨٦٤)

سيجموند فرويد: (١٨٥٦- ١٩٣٩) (١٢٧٣-١٣٥٨هـ): طبيب نمساوي، مؤسس مدرسة التحليل النفسي. أثارت نظريته الخاصة بتطور الغريزة الجنسية منذ الطفولة المبكرة، وقوله بعقدة أوديب؛ سخط أطباء الأمراض العقلية، وعددا ممن كانوا قد انضموا إلى حركته. وقد حاول تطبيق نظريته في تفسير نشأة المجتمع والدين والحضارة وتطورها، وكان لها أثر كبير في الدراسات النفسية والاجتماعية، وفي التربية والآداب والفن. (الموسوعة العربية الميسرة، د.ت، ص ١٢٩٧)

(١) **الذاتية:** هي مدرسة فلسفية تنظر إلى أن الحقيقة تكمن في الذات.

(Encyclopedia Britannica , 1981 , V. 7 , P. 892)

(٢) **النسبية:** نظرية فيزيائية قدمها أينشتاين تنبذ فكرة أن الزمان والمكان وحدتان مطلقتان. (الموسوعة العربية الميسرة، د.ت، ص ١٨٣١)

العظيمة للفضائل الخلقية المستمدة من الدين في حياة الإنسان. ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ پ پ پ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:٣٨].

فتحقيق خلافة الإنسان في الأرض، يحتاج منه إلى النظر في الجوانب المادية للحياة، لكن يجب ألا تكون القيم المادية هي المسيرة للرقي المادي، بل القيم المعنوية التي تساعده على الاحتفاظ بمرتبته في (أحسن تقويم).

لكن الحضارة المعاصرة قد غفلت عن هذا الأمر؛ فجعلت الإنسان تابعا للمادة، مما أهبطه من عليائه، فأصبح يسير ذليلا وراء القيم المادية التي أعلت من شأن الآلة وحطمت الإنسان، حين قطعت الصلة التي تربطه بالكون والتي تجعلها في مقام العبودية سواء.

فينبغي في تربية المرأة المسلمة المعاصرة تحذيرها من الانخداع بمظاهر التقدم المادي. سيما وأن الأصول العقدية في القرآن الكريم تشير إلى أن الأفراد والأمم لا توزن بثرائها المادي: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾[سبأ:٣٧] وإنما بصلاحها وحرصها على العدل: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص] ، ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء].

فالمكاسب الدنيوية قد تتناسب مع بذل الجهد؛ لكن عواقب الإفساد لابد وأن تظهر في وقتها: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [لقمان] .

والنتائج التي حدثت بسبب التقدم الغربي غير المنضبط بالقيم، تعد مؤشرا واضحا على أن غفلة الإنسان عن الإيمان، تجعله يغفل عن قيمته الحقيقية، فيهبط إلى مستوى لا يليق به.

سادسا : بعض سلبيات الحضارة المعاصرة على مستوى الكون :

من الواجب في تربية المرأة المسلمة المعاصرة العمل على توجيهها إلى سلبيات الحضارة الغربية، خاصة على مستوى البيئة؛ لتدرك مدى الإثم الذي يرتكبه العالم الغربي في حق الشعوب الأخرى، وبذلك ينتفي لديها الشعور – إن وجد– بكونه القائد، وغيره التابع.

ويعتبر التلوث البيئي واستنزاف الثروات من أبرز الآثار السلبية للتقدم المعاصر، وسنتحدث عنهما بشيء من التفصيل فيما يلي:

١- التلوث البيئي:

أصبحت حماية البيئة من القضايا العالمية المعاصرة التي تستحوذ على اهتمام العلماء والمسئولين، وتعقد من أجلها المؤتمرات واللقاءات للتفكير في كيفية تلافي المشكلات المتمثلة في استنزاف الموارد، والتلوث البيئي، وغيرها من المشكلات التي تكشف عن الخلل في العلاقة بين الإنسان والبيئة، والذي تسبب فيه تجاهل الإنسان للضوابط التي يجب أن تحكم سلوكه تجاه البيئة.

فالمفاهيم النفعية للتقدم الغربي قد أدت إلى تقديس الاقتصاد، وإيجاد الإنسان **(ذا البعد الواحد)**، ومن ثم شاع الاغتراب، وزادت حدة التوترات النفسية على المستويين الفردي والجماعي. وكان من نتائج ذلك أن وصلت الحضارة الغربية إلى الرعب النووي، والحديث عن حرب الكواكب. كما كان من نتائجها أيضا تضرر البيئة، والمناخ على المستوى العالمي (وثيقة الإستراتيجية العربية للتنمية الاجتماعية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ٤٠).

وتشير الإحصائيات إلى أن أكثر من ٥٠٪ من الاستثمار العالمي في العلم والتقنية؛ يتجه لإنتاج الأسلحة، وأن ثلثي المتبقي؛ يتجه لإنتاج سلع غير ضرورية. وهناك اعتقاد ثابت لدى الباحثين بأن بيئة النمط الصناعي الغربي على صلة وثيقة بأول ١٠-١٥٪ من الأمراض المؤدية إلى الوفاة. وأنها على صلة وثيقة بالاختلال البيئي، والتلوث الحراري بكل تبعاته، كما أن هناك دراسة استشرافية عالمية، أظهرت استنزاف الموارد في شراء معدات لمكافحة التلوث في الدول الصناعية باستثمارات تتعدى ٧٥٪ من الناتج عن استغلال تلك الموارد (وثيقة الإستراتيجية العربية للتنمية الاجتماعية ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص ٤٠).

وقد ظهرت مشكلة التلوث البيئي كواحدة من أهم المشكلات البيئية مع بداية هذا القرن، ولا تكاد منطقة في العالم تخلو من التلوث الخفيف، بينما تشكل المدن الصناعية الكبرى موطن التلوث الخطر؛ الذي يذهب ضحيته سنويا مئات الأشخاص الذين يعانون أمراضا تنفسية بسبب التلوث (الجدى، في الجمهورية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥ م، ع ٩٥٢٧).

وتسهم المرأة المعاصرة بدورها في تلويث البيئة، وذلك من خلال المخلفات

والنفايات الصلبة والسائلة والغازية التي تنتج عن كثير من الممارسات اليومية، في الحياة المعاصرة والتي إذا ما أهمل تصريفها بطرق صحيحة؛ تتعفن، وتتحلل مولدة كثيرا من المشكلات الصحية والبيئية.

من هذه المخلفات؛ الأكياس البلاستيكية التي لا تتحلل إلا بعد حوالي ٣٠ سنة من استعمالها؛ ولذلك نجدها تتراكم كنفايات تلوث مصبات الأنهار، وأماكن تجمع المياه، وتختلط بالتربة فتقلل من خصوبة الأراضي الصالحة للزراعة، كما أنها - خاصة السوداء منها - تتسبب في كثير من الأمراض ذات العلاقة بالجهاز الهضمي والتنفسي (الشرق الأوسط ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م،ع٥٩٩٥).

وهناك أيضا مخلفات المستشفيات، والصيدليات، والمبيدات الكيميائية والحشرية، ومخلفات المصانع الكيماوية، وغيرها. وهناك غازات التبريد (الفريون) التي شاع استخدامها في أجهزة التبريد والتجميد، مثل المكيفات والثلاجات، ومعلبات الرش من مبيدات ومصففات شعر ومساحيق حلاقة (النجار، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص ١٠٥/ تقرير التربية البيئية في اليمن، د.ت).

فغاز الفريون يتسرب إلى الجو فيسهم في تحلل طبقة الأوزون، مما يحدث فيها ضعفا يعرض الحياة على الأرض لأضرار جسيمة. وطبقة الأوزون هي الجزء العلوي من الغلاف الجوي (ستراتوسفير stratosphere)، وقد جعلها الله درعا واقيا يعمل على حماية الحياة فوق الأرض من التأثيرات الضارة للأشعة فوق البنفسجية، وهي عبارة عن طبقة من الغاز الشفاف السام تتواجد في الغلاف الجوي وتنتشر على ارتفاع ١٦ كيلو مترا عن سطح الأرض، وتقوم هذه الطبقة بامتصاص الأشعة فوق البنفسجية، وبذلك تنقي الأشعة القادمة إلى الأرض (القاسمي، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦ م، ص٥١ والحفار، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م، ص٤٧٠).

وتشير الدراسات إلى أن تأثير الطائرات قد يؤدي إلى تحلل ١٠-١٥٪ من طبقة الأوزون بنهاية هذا القرن، وأن الإسراف في استخدام غازات التبريد قد يزيد هذه النسبة إلى ٢٥٪ بحلول عام ٢٠٥٠ م (النجار ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص ١٠٥-١٠٦).

كذلك تؤكد الدراسات على أن مولدات الكهرباء، ومحركات السيارات، ومواقد الاحتراق في أجهزة التدفئة؛ تعتبر المسئول الأول عن تلويث الهواء بما تطرحه من ملوثات

غازية لها أضرارها على جلد الإنسان وأجهزته المختلفة وخاصة الجهازين التنفسي والدوري. كما ثبت أن الأجهزة التي تحتاج في دورانها إلى تيارات كهربائية عالية الجهد والتي تؤدي إلى صدور إشعاعات منها؛ ذات أثر سيئ على صحة الإنسان كما في التلفزيون الملون، وأجهزة الموجات القصيرة (المايكروويف) [1] التي نتداولها اليوم بكثرة. (الحفار،١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م، ص ٢٠١ / النجار، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص ٦٥، ص٩٦).

كذلك وجد أن للمخلفات الصناعية والمبيدات الحشرية أثر على النظام الهرموني للإنسان؛ يؤثر على المدى البعيد على خصوبته، وقدرته على الإنجاب. وهذه المواد تؤثر على الإنسان من خلال تناوله للأغذية المستمدة من مصادر حيوانية أو نباتيه تكون قد تأثرت بهذه المواد، أو نتيجة لقذف نفايات المصانع إلى مختلف البيئات المائية، وانتقالها إلى الكائنات الحية بطرق مباشرة أو غير مباشرة (النجار ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص ٩١).

بل إن المضادات الحيوية التي تدخل في تركيب أعلاف المواشي والدواجن بهدف تسمينها وعلاج بعض أمراضها، لها خطورة على الجهاز المناعي لدى الإنسان؛ حيث تعمل على إكساب بعض أنواع البكتريا الضارة بصحة الإنسان مناعة يتعذر معها علاجه من بعض الأمراض. كذلك فإن بعض الهرمونات الأنثوية التي تحقن بها الدواجن من أجل تسمينها والإسراع في نموها يمكن أن تؤثر على خصوبة الرجل الجنسية فتقلل منها، وترفع مستوى الهرمونات الأنثوية لدى المرأة، وقد تؤدي إلى إحداث تورمات خبيثة في ثدي المرأة (القاسمي، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص ٣١-٣٢).

فينبغي في تربية المرأة المسلمة المعاصرة الاهتمام بتنبيهها إلى الأخطار التي تحدق بالبشرية جمعاء، من جراء التلوث البيئي، والتي ينعكس أثرها عليها شخصيا بدرجة كبيرة. ويشير إلى ذلك ما جاء في وثائق مؤتمر بكين الرابع للمرأة عن تأثر صحة المرأة بالتلوث البيئي، ومن ذلك ما نصه:

" وكثيرا ما يكون لتدهور البيئة المستمر الذي يؤثر في حياة جميع البشر، وقع مباشر بدرجة أكبر على المرأة، فصحة المرأة ومعيشتها يهددهما التلوث، والنفايات السمية، وانحسار الغابات الواسع النطاق، والتصحر، والجفاف، ونضوب التربة، والموارد

---

(١) **المايكرويف**: إشعاع إلكتروني ذو تردد عال وموجات قصيرة.

(Encyclopedia Britannica , 1981 , V. 6 , P. 868)

الساحلية والبحرية، مع حدوث ارتفاع متزايد في المشاكل الصحية المتصلة بالبيئة، التي تصل إلى حد الموت، والتي يبلغ عن حدوثها بين النساء والبنات. وأكثر هؤلاء تأثرا هن النساء الريفيات من السكان المحليين اللاتي تتوقف حياتهن ومعيشتهن اليومية على النظم الأيكولوجية المستدامة مباشرة " (وثائق مؤتمر بكين في الشرق الأوسط، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، ع ٦١٤٠، فقرة ٣٦).

ويرى بعض المثقفين الغربيين أن حل مشكلاتنا البيئية يكمن في العودة إلى الطبيعة، وهو أمر غير مجد، وقد حذر منه بعض العلماء الذين أدركوا السبيل الحقيقي لحل مشكلات الإنسان المعاصر، من بينهم (فرديناند فللمان) الذي حذر من " مغبة التغني المفرط الحالم بفلسفة جديدة تقدس الطبيعة "، وهو يرى بأن " ضآلة الفلسفة التي تمخضت عنها كوارث تلوث البيئة الوخيمة العواقب، ليست فلسفة جديدة للطبيعة بقدر ما هي فلسفة جديدة للتكنولوجيا. " ويعلق على ذلك هوفمان بإشارته إلى أن الأمر يحتاج إلى" إعادة تحقيق الواقعية المفقودة للتكنولوجيا المصابة بداء التضخم، المتجاوز لكل حد، والتي أصبحت لها السيادة على كل شيء " (هوفمان،١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص ١٦٤).

ويضيف قائلا:

" وباختصار: إن الأمر الجوهري المطلوب يتمثل في نوعية جديدة مختلفة من الاقتصاد " فلا بد أن يغير الإنسان نفسه؛ لأن إنقاذ الطبيعة " يتطلب تغييرا جذريا تاما للنظام الاقتصادي المستغل المنتهك لقوانين الطبيعة، وهذا يتطلب تغيير الإنسان المستهلك أولا "، وهو لا يتحقق في حياة المسلم إلا إذا فهم أنه عبد لله بحق (هوفمان،١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ م، ص ١٦٥).

فحل مشكلات البيئة يكمن في الإسلام الذي يضع الضوابط والقيود التي تمنع الإنسان من سوء استعمال المسخرات الكونية. مما يضع على عاتق المسلمين مهمة كبيرة في أداء مسئولياتهم تجاه العالم من حولهم من أجل ترشيد التقدم المعاصر، والتخفيف من آثاره السلبية من خلال الالتزام بالضوابط الأخلاقية التي ألزم بها المسلم في تعامله مع غيره.

ولكي تسهم المرأة المسلمة المعاصرة في القضاء على المشكلات التي أوجدها التقدم المعاصر؛ فإنه ينبغي الاهتمام في تربيتها بتغيير ما بنفسها من ممارسات وعادات خاطئة،

وتوجيهها إلى المبادئ الخلقية التي حث الإسلام على الالتزام بها في التعامل مع غيرها من المخلوقات، حتى تحقق العدل والإحسان في أدائها لمسئوليتها تجاه البيئة باعتبارها تمثل جزءا من رعيتها،حيث إن في الإحسان إليها تحقيق لكمال عبوديتها لله. فقد جاء عن الرسول ﷺ أنه قال: " الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق " (مسلم، د.ت، ج١، الإيمان / ١٢، ص ٦٣).

فالانغماس في الترف يمكن أن ينسي المرأة الهدف الذي خلقت من أجله وهو العبودية لله، وقد يصل بها الأمر إلى درجة الطغيان، بحيث تؤثر شهواتها، ويملك حب الدنيا عليها جوانب نفسها؛ مما ينسيها التوجيهات النبوية التي تحذر من حب الدنيا والركون إليها. ومن بينها قوله ﷺ: " من كانت الآخرة همه؛ جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كانت الدنيا همه؛ جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله؛ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له" الترمذي، د. ت، ج٤، القيامة / ٣٠، ص ٥٥٤).

والحديث يشير إلى أن حصر الهم في إشباع الكيان المادي دون تجاوزه إلى الكيان الروحي، ينحط بذات الفرد عن المنزلة التي أرادها الله له ليهبط إلى منزلة أدنى. يقول ﷺ:"من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه، فقد أخذ بحتفه وهو لا يشعر"(المتقي الهندي، ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م، ج ١، ص ١٧٩).

فينبغي في تربية المرأة المسلمة المعاصرة العمل على توعيتها بالأخطار التي يمكن أن تهدد صحتها وصحة أفراد عائلتها، والبيئة من حولها، وتوجهها إلى أهمية ترشيد ممارساتها الخاطئة والاستهلاكية[1] التي تساعد على زيادة التلوث، وتعريفها أيضا بسبل ترشيد استخدام المنتجات التقنية الحديثة. وذلك لأن كثيرا من النفايات إنما هي أطعمة زائدة أو نتيجة لممارسات خاطئة، فلو قدرت المرأة احتياجات عائلتها تقديرا سليما لخفف ذلك من مشكلة تراكم النفايات. كما يمكن تعليم المرأة الريفية كيفية الاستفادة منها، بتحويلها إلى أسمدة مثلا.

فغرس المفاهيم البيئية السليمة لدى المرأة يساعدها على تجنيب نفسها، وأسرتها كثيرا من الأمراض الصحية والنفسية، وقبل ذلك يجنبها العقاب من الله على عدم أدائها واجب

(١) في مدينة سياتل الأمريكية قام المسئولون باتخاذ سياسة تهدف إلى توجيه المستهلكين إلى الإقلال من النفايات وذلك بفرض سعر أعلى على صفيحة القمامة الثانية. وقد نجحت الفكرة في تحقيق أهدافها (يونج، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص ٢٩).

الشكر له على نعمه عليها.

ويمكن لأنواع التعليم وخاصة محو الأمية أن تسهم في عملية الفرز لما تدفعه وسائل الاتصال من إعلانات تجارية بحيث تزود الأميات بزاد من المعرفة والخبرة يمكنهن من استبعاد كل ما يشكل ضررا على التطور والإنتاج والفعالية في المجتمع، وأهم ما يجب أن يوجهن إليه؛ الإقلال من النفايـات، ويمكن لأجل ذلك استخدام إطار من الحوافز المشجعة حيث إن تخفيض النفايات – كما يقول يونج – يمثل الاختيار الأول والوحيد الذي يغني عن الحاجة إلى التخلص منها وعن استخراج وتصنيع المواد البكر، بل وحتى عن تخفيض الطاقة والتلوث الناتجان عن إعادة التدوير (يونج، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص ٤٩).

٢- استنزاف الثروات:

يؤكد علماء البيئة في الغرب على أن موارد العالم الطبيعية قد تعرضت على يد الحضارة الصناعية الحديثة إلى تبديد هائل ثمنا لتحقيق هذا النمط من التصنيع الذي ابتدعته؛ متجاهلة لحق الأجيال التالية في الثروات غير المتجددة.

وتسهم الدول النامية أيضا في استنزاف ثروات البيئة من أجل البقاء على قيد الحياة، حيث تعمد إلى الاعتداء على بيئتها بضرواة بسبب الجهل، مما يجعلها تستنفذ من الموارد ما يمكنه لو تم ترشيده أن يكفي حاجتها في الحاضر والمستقبل.

وذلك إنما يحدث بسب الجهل، إذ أنها لو أدركت أهمية الموارد البيئية وكيفية الحفـاظ عليها؛ لما أسهمت في تخريبها.

وكذلك الحال بالنسبة للنساء، خاصة في الأرياف؛ حيث يقمن في سبيل توفير الماء والحطب، والقيام بالأنشطة الزراعية المختلفة، بالتأثير على إمدادات المياه، والغطاء الشجري والأراضي الزراعية (وضع السكان، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص ٢).

وتبلغ قمة الاستنزاف للموارد في غير ما جعلت له في الممارسات غير الإنسانية ضد المخلوقات في الكون من أجل إشباع شهوات الإنسان بصفة عامة، والمرأة بصفة خاصة، ومن ذلك مسابقات مصارعة الثيران [١]، والديكة، وقتل الطيور من أجل استخدام ريشها

(١) كانت مصارعة الثيران وإلى عهد قريب مقصورة على الرجال بموجب قانون رسمي، لكن سمح بها للنسـاء مؤخرا فكـانت (كريستينا سانتشيت) أول امرأة يسمح لها بمصارعة الثيران على حلبة مدريد، وقد أكدت

في تزيين قبعات ومراوح النساء اليدوية.

وتشير الإحصائيات إلى أنه في ثمانينات هذا القرن الميلادي؛ هلك القسم الأكبر من طائر البلشون الأبيض بسبب الحاجة إلى ريشه في تزيين القبعات، مما دفع ببريطانيا إلى إصدار مرسوم لحمايتها عام ١٩٨١م، وهو قانون لا يسري على الطيور التي تربى في المنازل والحقول، والتي أصبحت الممول لعمليات التصنيع في هذه الأيام (الشرق الأوسط، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٥ م، ع ٦١٤٨).

وتظهر المفارقة والبون الشاسع بيننا وبين الغربيين إذا ما فكرنا في الغاية التي بعث من أجلها الرسول ﷺ والتي يقول الله سبحانه وتعالى عنها: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء] ، وكيف أنه عليه السلام وفي سبيله لبناء وتنمية الحس الحضاري لدى الإنسان المسلم؛ قد نهى عن التحريش بين البهائم (أبو داود، د.ت، ج٢، الجهاد / رقم ٢٥٦٢، ص ٢٦)، كما أخبر عن امرأة دخلت النار بسبب هرة.

فقد روي عنه ﷺ أنه قال: " عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت النار؛ لا هي أطعمتها وسقتها، إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض " (مسلم، د. ت، ج٤، السلام/ ٤٠، ص ١٧٦٠).

وقد عقد في ألمانيا اجتماع بمناسبة الاحتفال بمرور ربع قرن على إنشاء المركز الإسلامي في (آخن) بألمانيا، وذلك في ١٧ مايو ١٩٨٩ م / ١٤٠٩ هـ، وكان الموضوع الرئيسي للاجتماع يتناول البيئة وتلوثها والإسلام، وكان من بين النقاط التي نوقشت في الاجتماع:

١ – أن السبب الحقيقي في تدهور البيئة يتمثل في اغترار الإنسان غير المؤمن بجبروته، واعتقاده بأنه المسيطر على البيئة، فله أن يتمتع بها كيفما شاء، في حين أن المسلم يدرك أن الملك كله لله، وأن الكون أمانة لديه ليستغل خيراته استغلالا مسئولا.

٢ – أن المسلم مكلف بالاعتدال في كل شيء ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف] ، فلابد من الحفاظ على التوازن البيئي، ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦].

٣ – يسهب القرآن الكريم في التوجيه إلى تدبر عظمة الكون ليدرك الإنسان أن

أنها كانت تصارع الثور ونصب عينيها مستقبل المرأة في هذا الفن، وفشلها كان سيعني فشلا لهن، وقد نجحت. (الشرق الأوسط ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م، ع ٦٠٧١).

الكون كله أمة واحدة ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور] ، والقرآن الكريم تحمل سوره أسماء كائنات حية، والإنسان يشترك مع المخلوقات الأخرى في أنه جزء من الخليقة، ويخضع لقوانين الله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام]. فليس للمسلم أن يتصرف في المخلوقات كما يشاء، وقد ضرب الرسول ﷺ أروع الأمثلة في الرفق بالحيوانات بحيث ينتفع بها انتفاعا مشروعا (هوفمان، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص ١٦٢-١٦٤).

فمن أجل الحفاظ على الثروات ينبغي في إعداد الأفراد ذكورا وإناثا؛ الاهتمام بتنمية قدراتهم، بما يمكنهم من الاستفادة من الثروات، مع الحرص على ما يكفل إعادة توليدها في المستقبل ضمانا للأجيال المقبلة. فالتغير المطلوب هو في ذات الإنسان، بحيث يوازن في اهتمامه بين مطالبه المادية والمعنوية.

لقد أسرف الإنسان الحديث ليس في استغلال الطبيعة فحسب؛ بل في التوجه إليها بشكل جعله يهمل شئونه النفسية، وموارده الذاتية،حيث إندفع في استكشاف الطبيعة، واستثمار مواردها، فكانت إنجازاته الرائعة فيها، لكنه ظل متخلفا في استكشاف أسرار نفسه، وتنمية كفاءاته الخلقية. فالتغير المنشود يتجاوز مجرد الانصراف عن اغتصاب الطبيعة إلى احترامها ليغدو أكثر عمقا وشمولا- من الطبيعة إلى الإنسان، من الخارج إلى الداخل، من التنمية الاقتصادية إلى التنمية الذاتية، من الشهوة المادية إلى الشهوة الأدبية، من الإقبال على الوسيلة إلى الإقبال على الغاية. فهو تحول متزن يضع كل حاجة موضعها ويعطي كل قيمة حقها، حسب سلم صحيح للأولويات دون تطرف أو إسراف. لقد أبدع الإنسان الحديث في صنع الأشياء ، لكن الإبداع المنتظر أو المفروض لضمان بقاء البشرية وتقدمها الصحيح، هو في صنع الذات؛ إبداع يؤهل الإنسان لحسن تأدية الأمانة التي كلفه الله بها (زريق، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م ، ص ٨٨-٨٩).

وللمرأة دورها في ترشيد استخدام مسخرات الكون، وذلك يتم كما أشرنا سابقا من خلال ترشيد الاستهلاك، وضبطه بالقيم الخلقية التي تكفل تحقيق العدل والإحسان في تعاملها مع المسخرات.

ونجد وثيقة مؤتمر بكين تنص على أن السبب في تدهور البيئة يكمن في أنماط الإنتاج والاستهلاك غير المستدامة؛ ولذلك فقد دعت إلى تنمية بشرية مستدامة. حيث

جاء في ذلك ما نصه:

" والسبب الرئيسي في استمرار تدهور البيئة في العالم هو أنماط الإنتاج والاستهلاك غير المستدامة، ولاسيما في البلدان الصناعية، وهي مسألة تثير قلقا كبيرا وتزيد من حدة الفقر واختلال التوازن؛ ولذلك فإن التنمية الاجتماعية المنصفة التي تعترف بتمكين للناس الذين يعيشون في فقر، ولاسيما النساء، من استغلال الموارد البيئية بشكل مستدام؛ هي أساس ضروري للتنمية المستدامة. وفي وسع النساء كمواطنات أن يغيرن أنماط الاستهلاك في دورهن المتعدد كمستهلكات، وربات أسر، وعاملات..." (وثائق مؤتمر بكين في الشرق الأوسط، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ع ٦١٤٠، فقرة ٣٧).

فينبغي في تربية المرأة المسلمة المعاصرة العمل على توعيتها بدورها في واقع المجتمع، وأنها ستسأل عن دورها في تحقيق الخلافة في الكون، والاهتمام كذلك بإخراج المتخلفات من المسلمات من أوضاعهن التي تجعلهن مكتفيات بكونهن تابعات لما يقدمه لهن الغرب، دون أن يكلفن أنفسهن عناء العمل والتضحية في سبيل الارتقاء والتقدم من خلال الإسهام الكبير الذي يمكن أن يقمن به في تغيير الأنفس باعتبارهن يمثلن الأساس الأول في المؤسسة التربوية الأولى وهي الأسرة، سيما وأن القرآن الكريم يؤكد على أن العقبات التي قد تحول بين الإنسان وبين التقدم إنما هي عقبات ذاتية وليست موضوعية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

إن الشعوب المتقدمة لم تصل إلى مرحلة الاستهلاك إلا بعد أن قطعت مراحل عديدة في التصنيع والإنتاج، في حين أننا نجابه – مع غيرنا من الدول النامية – خطر الإقبال على الاستهلاك قبل توفر وسائله. والتربية هي التي تنمي لدى المرأة المسلمة المعاصرة توخي الاقتصاد والاعتدال والانضباط، وغيرها من الصفات المطلوبة في إنسان العصر الحديث، بحيث تكف عن تقليدها للمرأة الغربية؛ لأنها لن تتجاوز تخلفها إذا ما تهالكت على شهواتها، واستسلمت لأنانيتها، وتخلت عن إنسانيتها لتصبح مجرد كائن استهلاكي.

ونجد من بين نساء العالم النامي من بدأن في إدراك هذا الأمر، وبوادر ذلك قد ظهرت في مؤتمر بكين من خلال التعارض الذي بدا بين نساء الشمال ونساء الجنوب، حول المفاهيم والمعاني، بل وحتى في الكلمات، بسبب اختلاف مشكلات وهموم نساء الشمال عن مشكلات وهموم نساء الجنوب، نظرا لاختلاف المستويات المعيشية وأنماط الحياة التي تجعل نساء الشمال غير قادرات على فهم مشكلات نساء الجنوب لما يغلب على حياتهن من أنماط استهلاكية (ابن

سعيد، في الشرق الأوسط ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م–ع ٦١٢٩).

وأهم ما ينبغي التركيز عليه في تربية المرأة المسلمة المعاصرة هو توجيهها إلى الإمكانيات الكبيرة التي يمكن أن تسهم بها في عمارة الأرض إذا ما أحسنت القيام بمسئوليتها الأولى في تربية الإنسان المسلم الذي يقوم بعمارة الكون. بحيث تربيه على الجد والاجتهاد منذ نعومة أظفاره. وتسهم هي في ذلك بدورها فيما يقع ضمن دائرة اهتماماتها وأبرزها النظافة التي يحبها الله، والتي أصبحت في الوقت الحاضر تمثل مظهرا حضاريا تفخر به الدول المتقدمة.

يقول الرسول الكريم ﷺ فيما رواه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: " إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود... " (الترمذي، د. ت، ج٤، الأدب/ ٤١، ص ١٠٤).

والمؤسسات التربوية هي التي تعمل على توجيه المرأة المسلمة المعاصرة إلى الكيفية التي تمكنها من تحويل التوجيهات الإسلامية إلى إنجازات حضارية عملية يبرز أثرها في واقع الحياة.

* * *